اشـــتراك فى الأثم ...

للشاعر الفرنسي القصصي بول بورجيه

بقلم السـيد كمال الحريرى

لقيت فى ميلان على رصيف المحطة « آدم ريموند » ، بينما كنت أصعد إلى قطار من تلك القطر التى يتبجح الإيطاليون بتسميتها « البرق » . تصور أن هذه القطر لا توصلك فى أقل من سبع ساعات إلى بلد لا يستغرق الوصول إليه أكثر من خمس . ماذا ، أتسخط أتتذمر ؟ ؟ إنك إن تفعل يجيبوك بابتسامة رقيقة لا تقاوم « ذلك هو الحظ الإيطالى ! أيسخرون من أنفسهم أم يستهزئون بك ؟ ؟ مهما يكن من الأمر فأنت مجبر على أن تغتفر لهذا القطار « البرق » استراحاته المستمرة على طول الطريق ليتسلم حزم البريد من كل محطة . ومع ذلك فقيم الحنق والإنكار وأنت فى رحلة لذيذة إلى « جه ن » لمشاهدة « القصر الأحمر » و « القصر الأبيض » ؟ ذلك أنى كنت أقصد « جه ن » ، حين دلفت إلى « آدم ريموند » وكان قاصداً إليها أيضاً فسألنى :

— أترغب فى مرافقتى يا صديقى ؟ فأجبته وأنا أتقدمه فى صعود القاطرة « ليس أحب إلى من هذا » مع أنى لم أكن مخلصاً فى قولها ، لا لأن شخص « ريموند » كان مقيتاً إلى ، فهو فتى رقيق الحاشية ظريف الطبع ، ما أنكرت منذ العشرين عاماً التى مرت على تعارفنا شيئاً من علاقاتنا الودية معاً ، رغم اختلافنا فى الذوق والمنزع . زد على ذلك أنه محدّث بارع ظريف الحوار له من ثروته الفائضة عن حاجاته ما يسمح له بالإرتحال والسياحة . ولقد ساح فعلا فى بلاد كثيرة وشاهد ممالك مختلفة . على أنه مهما كان من شأنه فهو « باريسى » ، وعنده ما لا يستطيع المرء أن يختلس من شئونه غير عشرين يوماً يخصصها للاستحمام فى حمامات إيطاليا ، يتخوف ويتهرب من كل مُلاقاة من شأنها أن تقذفه ثانية إلى « باريسه » المتروكة .

نص على « رايموند » قصة كانت من التأثير على بحيث أريد أن أقصها بدورى . لأنها تتعلق بسلسلة من « حالات الضمير » وبالرغم مما قاله عنها « باسكال » فإن كل ما فى الحياة الإنسانية من خير وجمال إنما يصدر عن هذه « اليقظات الوجدانية » وعما تؤدى إليه من حلول . لقد كان رفيقى يسرد على هذه الحكاية ، على حين يطوى القطار المسافة من « نوفى » حتى « سمبيه داربنا » فى هضاب مرتفعة متموجة على طول الوادى الضيق الذى تتلوى فيه « سكرفينا » الموحشة ، ولقد كنا نتبادل على مصادفات الطريق كثيراً من المناسبات والأحاديث ، حين طرح على هذا السؤال العارض البسيط :

— أين تنزل فى « جه ن » ؟

فسميت له فندقاً خارجاً بعض الشيء عن منطقة أشباهه من فنادق المدينة . كنت أفضله لبستانه الفينان الواسع .

فقال « رايموند » :

— يؤسفنى إذاً أننا سنفترق . فكر يا صديقى فى أن هذا الفندق يثير فى نفسى ذكرى مؤلمة ، وإنى لأتطير أبداً من العودة إلى مكان جرى لى فيه حادثة مكروهة مزعجة . حادثة ؟؟ إن هذا التعبير يجاوز حده . ولكن مع ذلك ...

وسكت قليلا ثم قال : أحب أن أذكر لك هذه الحادثة ، خصوصاً وأنى أرغب فى معرفة ما عساك تفعله لو كنت محلى آنذاك ؟ لسوف أبدل لك أسماء أبطال القصة ، وبهذا لا تعلم عن هويتهم شيئاً . ثم ساق لى رايموند القصة فقال :

مضى على هذه الواقعة التى أنا بصددها خمسة عشر عاماً ، وكان ذلك لأول زيارة أزور فيها « جه ن » . هبطت إذاً ذلك الفندق الذى ذكرته أنت ، لنفس الأسباب التى حببته إليك . وكان الوقت خريفاً . وأؤكد لك أنى زرت يومئذ جميع القصور والكنائس الشهيرة : قصر الفنان فانديك ، قصر ده بريفيول ، سان بالبى ، به ران ، وكنيسة « سانت أسطفانو » و « سانتاماريا » وتماثيل « ده سانت لورانزو » . من هذا تعلم أنى جوّاب محق ، وفى المساء بينما كنت جالساً إلى عريشة أنيقة من عرائش بستان

هذا النزل ، أدون بعضاً من مشاهداتى وتأثراتى اليومية ، إذا برنين صوت نسائى على بضع خطوات منى فى ممشى من مماشى البستان ، يهزنى من محلى . لقد كانت غادة تتكلم وهى تظن نفسها على التأكيد منفردة وفى نجوة من الآذان المتطفلة، وبجانبها فتى يمشى متمهلا مترفقاً . وكانت جمل الحوار التى يرددانها ، دارجة كثيرة الاستعمال مما يؤكد أنهما فى حداثة الحب .

— كانت تقول « آه يا حبيبى العزيز . ما كنت لأجسر حتى على الحلم بهذا : أن أكون هنا بجانبك إزاء هذا البحر وتحت هذه السماء وأمامنا ساعات طويلة للمتعة واللذاذات ؟؟ عشرون ساعة ، لأن القطار لن يبرح « جه ن » قبل الظهر !

فأجابها صاحبها :

— أما أنا فلست أقل منك سعادة وسروراً ، لأنى لم أكن أحلم أن باستطاعتك الإنطلاق حرة إلى هنا ... ولكن ليكن رائدنا الحيطة ، ولنعد إلى النزل ، فإنه آمن لنا من هذا البستان المكشوف الذى ربما نلق فيه أحداً يعرفنا ، فسألته :

— ومن يكون إذاً ؟ إنه لن الممتع اللذيذ أن أنشق هذا النسيم المنعش وأشهد مغيب الشمس الجميل بصحبتك .

فقال الشاب :

— ومع هذا لقد كنت أحسن صنعاً ، منذ هنيهة لو أنى حين نزولى الفندق ، اتبعت فكرة البحث فى قائمته عمن فيه من السواح . فأجابته الفادة بفتنة العتاب الرقيق :

— يا ضنين ؛ أتراك تأسف على عدم اختلاسك منى هذه الخمس دقائق ؟ آه لو كنت مشغوفاً بى كل الشغف ، ما تعاقلت كل هذا التعاقل ، ولما عرفت لك كل هذه الفطنة والحذر .

فأجابها رفيقها :

— ولكن ذلك كله من أجلك يا حبيبتى . وإنما أبغى بكل جهد مستطاع أن أجنبك المخاوف والمتاعب

فتنهدت الفتاة قائلة :

ليأت من يريد أن يأتى ، إن من الغبطة والإنتشاء بالسعادة بحيث يستوى عندى كل شىء . أسمعت ؟ ؟ كل شىء لا يهمنى . ومر العاشقان بدون أن يلمحا شخصى . وأترك لك الآن الحكم على مبلغ اضطرابى وميعث ارتجاجى . لقد عرفت فى شخص هذه الصبية المتهامة التى لم تستطع أن تحبس لسانها عن الجهر بسعادتها وهواها ، امرأة صديق من أعز أصدقائى وأخلص خلصائى . واسمح لى أن أطلق عليه سياقاً للقصة « شارل روتيه » واسم امرأته إن أحببت « مرغريت » أما شريكها فى هذا الموعد الغرامى لدى هذا الفندق المتطرف الضائع « بـ جه ن » فقد كان مجهولا عندى . ولا بأس أن تعلم أيضاً ، أنى أثناء ذهابى فى صباح تلك الملاقاة للبحث فى شباك البريد عما لى من رسائل ، تسلمت من نفس صديق « روتيه » فى باريس ، رسالة يقص علىّ فيها أن قرينته تستفيد من سياحتها القصيرة بإيطاليا عند ابنة عمها دعتها إليها كى تقضى خمسة عشر يوماً فى « فلورنسا » و« روما » ولقد سمى لى فى رسالته اسم هذه « الابنة العم » بلهجة الامتنان والشكران على ما قدمته لامرأته الحبيبة من متعة وسرور . لم تكن عائلة صديقى « روتيه » معدودة من العوائل الواسعة الثراء ؛ فهو نفسه كان فى مفتتح مهنة المحاماة التى بدأ يلمع فيها نجمه ويعلو . أما ابنة العم فهى على العكس من ذلك : كان إيرادها فى السنة مائة ألف فرنك . ولقد كنت أعلم كل هذه التفاصيل باعتبارى كنت شاهداً لزواج صديقى « شارل روتيه » وأذكر يومئذ أنى سرت وابنة العم هذه فى مركب القران وقد عقدت ذراعى بذراعها . دخل المحبان بهو الفندق منذ زمن ، حيث أخذا هناك لا شك يتناولان الغداء على انفراد فى جو من الإيناس المكر الخطر ، الذى خطره وحده يخلق اللذة والمتعة فى العلاقات المستورة . أما أنا فكنت ما أزال فى البستان جالساً إلى المنضدة الصغيرة محدقاً فى دفترى المفتوح ، غارقاً فى لجج التفكير . وبعد أن ثبت لدى انهيار بناء تلك العائلة ، سأشعر بمض الألم أكثر من شعورى بعاطفة السخرية . ولكن أليس من السخر ما هو الألم مجسما ؟ إن التناقض الظاهر بين حضورى مراسيم حفلة الزواج تلك ، وهذا الموعد الغرامى ، أفعم قلبى منذ ذلك الحين مرارة غريبة أليمة . أضف إلى هذا أن « روتيه » كان عندى صديقاً عزيزاً . وهو يعبد امرأته التى تزوجته بالرغم من إرادة والديها . كما أنى كنت أعرف تمام المعرفة أن شارل كان يرهق نفسه فى العمل كل الإرهاق من أجل ترفيهها وتدليلها ، وأنه وهو العقيم الذى لم يرزق ولداً كان توأماً

إلى النسل . وأظنك لو جمعت كل هذه الأسباب جملة ، قدرت الإضطراب النفسي الذي أوقعني فيه ذلك الإكتشاف المفاجيء : اكتشاف المرأة المعبودة المقدسة تخون زوجها هذه الخيانة النكراء ترى كم مضى من الزمن على أولى هذه المناصرات ؟ ثم أين التقت بهذا الفتى الذي لا أذكر أني شاهدته أو صادفته عندهم ؟ وأخيراً ما هو الدور الذي تلعبه « ابنة العم » في هذه المأساة ؟ أترى « مرغريت » متواطئة معها ، أم أن الزوجة الخائنة استطاعت أن تجد الوسيلة لخداع ابنة عمها ، كما خادعت زوجها ؟ وهل تكون هذه اللاقاة هي الأولى التي بات العاشقان فيها الواحد للآخر؟ من يدري لعل هذا الولد الذي يهفو صديقي إلى إنجاده مدفوعا بغريزة الأبوة النبيلة ، أن يتولد ويتخلق هنا في هذا المنزل الذي أرى من خلال أغصان أشجاره واجهته المضيئة بالنقوش والمثقبة بالنوافذ والشبابيك ؟ ! ثم أي نافذة من تلك النوافذ هي التي تنفتح على الغرفة التي يأوي إليها الزوجان غير الشرعيين ؟ ! كل هذه الأسئلة كانت تخطر على ذهني دفعة واحدة ، ثم تتجمع كلها حول هذا السؤال الأخير . عجباً ما هو واجبي أنا ؟ ... هناك حكمة هندية تعلمها جيداً كما أعلمها تقول : لا ينبغي أن تضرب امرأة حتى بزهرة . إن فكرة الشرف والفروسية التي انغرست في أعماقنا منذ عصور بعيدة كانت من التمكن « والتسلط » علي ، بحيث أخذت أردد في نفسي : إن واجبي هو التزامي حدود الصمت والكتمان ... السكوت ؟ الكتمان ؟ ... ورحت أتخيل « شارل روتيه » كما اعتدت رؤيته غالباً منذ زواجه ، مكباً على أضابير « زبائنه » يستقبلني في غرفة أعماله ، بهذه الكلمات أو ما يماثلها : ليس لدي من الوقت ما يمكنني من مصافحتك . إني لأغص بالأشغال وأرهق بالدعاوى . ومصالحي وأعمالي تزيد وتطرد يوماً فيوماً ، وثروتي الصغيرة تنمو معها أيضاً . ومع ذلك لا شيء يُعجز الإنسان حين يكون له شخص حبيب إليه . كنت أتمثل وجهه وكأنه قناع جمدته المشاغل وحضرته المتاعب ، تضيء من خلاله ابتسامة سعيدة راضية .

يا للجمود ! أفي الوقت الذي ينصب صديق جسمه ويقتل نفسه بالإنكباب على العمل الرهق ، ليؤمن لامرأته أسباب ترفها وبذخها ، تسلم هذه الأخيرة زمام فؤادها وعواطفها إلى شخص آخر ؟ ! إنها لتنفق على تجملها وتزينها مالا مكتسباً بعرق جبين زوجها . وكل ذلك كي تعجب رجلا غيره وا أسفاه ! وأنا نفسي ، هل يجمل بي أن أسمح باستغلال أتعاب صديق النزيهة الشريفة على هذه الصورة المخزية ، من قبل هذه السارقة الخبيثة بعد أن سمعت ما سمعت ورأيت ما رأيت ؟ أأصمت فلا أنطق ؟ ولكن ذلك اشتراك في الاثم ! ومرت على الذاكرة عهود صداقتي الطويلة المدى مع شارل : فتمثلته في سن العاشرة ، بقميصه المدرسي المشابه لقميصي ، وتمثلت ملاهينا وألعابنا آنذاك . ثم تخيلته في الخامسة عشرة وأنا معه في سفرة قصيرة لعطلة قضيتها عند أهله في الريف . لقد كنا طالبين داخليين بمدرسة « لويس كراند » ترى أكنا سعداء ذلك الصيف بانصرافنا عن مرج المدرسة البارد الضيق ، إلى سهل « لوار » الأخضر المروع ؟ ثم تصورت صديقي في العشرين من عمره يمارس معي خدمته العسكرية ، وكيف كانت بعد ذلك حياتنا في الحي « اللاتيني » ونحن نتابع دراستنا معاً في كلية الحقوق كل هذه الصحبة الطويلة التي استمرت ما بيننا أربعين سنة ، والتي هي بالأخوة أشبه ، ثارت بي وتمردت على هذا الاشتراك في الجرم . وفي الحق أن صمتي لا يمكن أن يوصف بأقل من ذلك . فلو فرضنا أن العاشقين اقترفا إثماً أو أتيا منكراً « وزهتهما الحمقاء في البستان تبرر ذلك وتؤيده » ... فهل أجد الجرأة على أن أقول لشارل : « لقد كنت أعلم كل شيء من قبل ؟ ... لئن جبهته بذلك القول ألا يسخط لأني لم أنذره من قبل ؟ ! ولكن كيف لي بإنذاره وإعلامه ؟. أفي المكن الوشاية بامرأة ؟ أمن اللائق والذوق فضحها وإشهار أمرها ؟ كان لزاماً علي إعلام صديقي شارل برسالة عن كل شيء . ولكن أليس يجدر بقلمي أن ينكسر بدلا من كتابته ما فاجأت به امرأته ؟ وأخيراً أبي حاجة إلى أن أزيدك كلمة على ما ذكرت ؟ ... وأظنك الآن فهمت لماذا يثير هذا الفندق الذي أمضيت فيه تلك الأمسية فريسة لتقريع الضمير ، ذكرى أليمة لا تطيقها نفسي أبداً . إن مجرد شعوري بأن الخيانة وقعت على بضع خطوات مني ، وإن مارى كانت بين ذراعي حبيبها ، في غرفة ربما تكون ملاصقة لحجرتي ، كان يضيف إلى هذا الاضطراب النفسي عذاباً جسميا كاد يطغى فيتحول إلى آلام لا تحتمل .

البقية في العدد القادم

كمال الحريري

سكك حديد الحكومة المصرية

عرض الاعلانات بالمحطات

لقد وجهت المصلحة كل عنايتها إلى المحطات فاقامت بها لوحات خشبية أعدت خصيصاً لعرض الاعلانات فضلا عن أنها تبذل مجهوداً صادقاً من وقت لآخر فى تجميل تلك المحطات حتى أصبح الإعلان فيها من أحسن وسائل الدعاية

وتتقاضى المصلحة جنيهين مصريين عن المتر المربع فى السنة وهى قيمة زهيدة تكاد لا تذكر بجانب أهمية الاعلان الذى يتصفحه آلاف المسافرين فى اليوم الواحد .

ولزيادة الاستعلام اتصلوا : —

بقسم النشر والاعلانات

بالادارة العامة — بمحطة مصر

مطبعة الرسالة